



لا يمكن لأيِّ شعبٍ أن
يكتبَ تاريخَهُ إذا كان
مقيّدَ الحرِّيَّةِ



البطريركُ الشهيد الياس الرابع

«الأنانيّاتُ لم تكتبْ تاريخًا، الأنانيّاتُ خلقتْ عنصريّةً بغيضةً»



في ٢١ من حزيران عام ١٩٧٩، أي منذ ٣٢ عامًا، رقد البطريركُ الشهيد الياس الرابع، وفي مثلِ هذا
اليوم، ٢٦ منه، ووريّ الثرى.



هذا نصُّ الكلمةِ التي ألقاها صاحبُ الغبطةِ في القدّاسِ الإلهيِّ المُقام من أجلِ أرواحِ الذين
استشهدوا في معركةِ التحرير

(نقلًا عن نشرة بطريركيّة الروم الأرثوذكس - كانون الأوّل ١٩٧٣)



ذكرى الشهداء تُجسّدُ أمامنا كلَّ أبعادِ الحياةِ وأعماقِها وتفترضُ كلَّ شهادتنا. أفكارنا لا تأخذُ مداها ما لم تولد من رحمها. حرّبتنا لن تكونَ حرّيةً ما لم تمرَّ ببوتقتها وخيالنا يبقى كسيحاً ما لم تُشدّدهُ أجنحةُ صيغَت من خيوطها. لن يكونَ لحياتنا معنى ما لم تكن شهادةً على مذبجِ المعرفةِ الحقّ.

إنسانيةُ الإنسانِ هي وليدةُ شهادتهِ الذاتيةِ، والإنسانُ الحقيقيُّ هو الذي يحيا في أعماقه حياةَ الشهادة. النفسُ الحرّةُ هي ثمرةُ للشهاداتِ الداخليّةِ تتالي في أعماقنا لتحقيقِ أزلّيتنا، والشهاداتُ الداخليّةُ طريقٌ إلى التجلّي للتلاقي الإنسانيّ الإلهيّ، للقفزِ من دنيا الموتِ إلى دنيا الحياةِ ومن الضبابِ إلى النورِ. وما حياتنا كلّها إلاّ شهادةُ حرّيتنا وحقّنا.

أعظمُ شيءٍ في الدنيا هو نكرانُ الذات، مَنْ أنكرَ ذاته من أجلِ الحقِّ عاشَ في الحقِّ، ومن أجلِ الحرّيةِ عاشَ في الحرّيةِ، جعلها شجرةً قويّةً جذورها تتغلغلُ في أعماقِ الأرضِ ورأسها يتعالى منارةً مشعّةً تثيرُ التاريخ. ومَنْ كالشهِيدِ ينكرُ ذاته من أجلِ الحرّيةِ والحقيقة؟ من كالشهِيدِ فوق دنيا الأرضِ، فوق الأناثيّاتِ السودِ والأهواءِ والمصالحِ الذاتيةِ؟ من كالشهِيدِ ينسى الأبَ والأمَّ والزوجةَ ليحيا الآباءُ والأمّهاتُ والأولادُ والأحفادُ في عالمٍ تشعُّ منه أنوارُ الحرّيةِ إشعاعاً يُحرِّكُ القلوبَ بالتهليلِ ويُداعِبُها بالبطولاتِ ويدغدغُ الأفكارَ بخلودِ الحياة؟ من كالشهِيدِ يطلُّ علينا فكرةً عاريةً إلاّ من الحقِّ، وقلباً لا تملأه إلاّ الكرامةُ وواقعاً يجنحُ مشاعرنا ويحملها إلى البعيدِ البعيد من دنيا السماوات؟ الشهداءُ هم الوجودُ الحقيقيُّ في دنيا المثل، ومن كالشهِيدِ يستحقُّ الذكرى؟ هل ذكراهم غيرُ ذواتنا كما يجبُ أن تكون؟ هل ذكراهم غيرُ الصورةِ لأرواحنا كيفَ يجبُ أن تنتهي؟ ذكرى الشهداءِ هي ذكرى بُعدنا الكبير، تخطّينا حدودَ المكانِ والزمانِ ليتقدّسَ المكانُ بقداستهِ نُخطّينا إلى عالمِ القداسة.

ذكرى الشهداءِ حقٌّ من حقوقهم علينا. دُمهم غدى تُربّتنا فأينعتُ بالحرّيةِ، دُمهم غنى نشيدِ حرّيتنا. فما علينا إلاّ أن نتبنّى النشيدَ، أن نحولَهُ إلى عاصفٍ يذري أضعافنا وينقي وجودنا من رتابةِ الميوعةِ وضحالةِ الحياةِ اليوميّةِ.

إنّ العالمَ العربيّ، وقد أخذَ شهداؤه يملأونَ الأرضَ، مدعوّو الآن، لا ليكتبَ تاريخاً جديداً، فتاريخه مجيدٌ وتليده. إنّه مدعوّو لوحدةٍ خلاقةٍ تتصافرُ فيه كلُّ القوى، فتتأخى الأفكارُ وتتلاحمُ المقاصدُ النبيلةُ

وتتصافى الضمائر وتتقدّس النوايا وتتساند السواعد. إذا تمكّن أن يحقّق ذلك وأن يتحدّى كلّ الصعوبات التي خلقها أعداء العرب ويخلقونها ويقضي على كلّ العراقيل الموضوعة في وجهه، استطاع أن يعيد لحضارته رواءها وإشراقها وبهاءها، وإنّي لأعتقد أنّ الدم الذي أراقه أبناء العروبة في سبيل حرّيتهم كفيلاً بأن يجمع العروبة كلّها ويزوّدّها بالزخم لتبرز أمةً واحدةً لها مقوماتها التاريخية والحضارية والفكرية.

لا يمكن لأيّ شعب أن يكتب تاريخه إذا كان مقيداً الحرّية. الحرّية هي النبع المقدّس الذي يروي التاريخ بالرائع والعظيم والخالد. كلّ حقيقة لا تنبع من هذا النبع هي فراغٌ يصفّر فيه ريح الموت. الأحرار هم الذين قيّدوا شهواتهم وجموا أهواءهم وخنقوا أنانيّاتهم. والأهواء والشهوات الأنانية عدوةٌ لوحدة الإنسان مع نفسه ومع ربّه ومع إخوانه في الإنسانيّة.

الأنانيّات لم تكتب تاريخاً، الأنانيّات خلقت عنصريّةً بغیضةً، والعنصريّة تولّد الطغيان وتقوم بالإرهاب وتنفث سوس اللاخلاقية لهدم بنيان البشريّة الحقيقي. الصهيونيّة عنصريّة تاريخية تحاول أن تمتصّ ضرع الإنسانيّة لتحيا هي ويبقى العالم في فوضى ودمارٍ مقتها العالم وأبغضها ولن يطول الوقت حتى يدرك البشر أيّ جرائم تنشر من أجل الحفاظ على عنصريّتها.

العروبة ليست عنصريّة. العروبة إخاءٌ يفتح على كلّ الدنيا وشمولٌ يحاول أن يحتضن الدنيا بالمحبة. العروبة تحبّ العدل والحقّ والسلام، ولا تسعى إلا وراء حرّيتها وحرّية الآخرين. العروبة تدين فكرة العنصريّة لأنّها لا تتفق مع رحمتيّتها. المؤمن بالله لا يمكن أن يكون محدود الآفاق ضيقاً. المؤمن وحدويّ، يرغب أن يكون مع كلّ الناس وبينهم حباً وسلاماً. من آمن بجرّيته وأحبّها أرادها وأحبّها في الآخرين .

العروبة تحبّ حرّية كلّ الشعوب، تحبّ أن يكون لكلّ إنسان حقّ في الحياة، لذلك تُحارب من أجل استرجاع أراضيها، من أجل مقدّساتها التي انتهكت حرماؤها، تحارب من أجل الحفاظ على وجودها في عالم جعل المصالح فوق الحقيقة، وجعل من القوّة حقاً يشلّ الحقّ ويخنقه. العروبة لم تتعدّ، لم تُشرّد،

لم تسلب حرّيات، لم تشرّد أيّ إنسانٍ من بيته ولم تهجّر أحدًا من دياره. العروبةُ تعملُ لدفعِ الظلمِ عنها لإعادةِ أبنائها إلى بيوتهم، لآسرجاعِ قبورِ آبائنا وأجدادنا، للعودةِ إلى هياكلنا ومعابدنا نقيمُ فيها صلواتنا ونَتصلُ برّبنا وقلوبنا مفتوحةً بالرضى ونخاطبُه ليهبَ السلامةَ للإنسانيّةِ التّواقّةِ إلى العدالةِ والسلام. العروبةُ بيتٌ مفتوحُ الأبوابِ والنوافذِ على الشمسِ الدافئة، ومائدةٌ ممدودةٌ مليئةٌ بحبزِ الرّبِّ ليشبعَ الجياعُ إلى البرِّ ويرتوي العطاشُ إلى المحبّةِ والحرّيّة. العروبةُ شعبٌ يؤمنُ باللهِ يأمرُ بالمعروفِ وينهى عن المنكرِ ويدعو إلى عالمٍ بعيدٍ عن الأثرةِ والظلمِ والطغيان.

كلُّ قيمِ العروبةِ الخلقيةِ تُجسّدُها أورشليم. خسارةُ أورشليم لا تعني إلاّ خسارةَ تاريخنا الماضي والحاضر والمستقبل، لذلك تُقاتلُ العروبةُ من أجلِ إعادةِ بيتِ المقدس. القدسُ هي زبدةُ الوجودِ من وجودنا. هي قارورةٌ طيبِ صلواتنا. هي قبلتنا ومحجّتنا، هي لنا، نحنُ العربُ المؤمنينَ بها. إنّها مدينةُ الله. هي لنا، لا لسوانا الذين أضعوا الله وكفروا به وعبدوا مكانه عنصريةً تزرعُ البغضاءَ والحقدَ في قلوبِ الناس. القدسُ لنا، نحنُ العربُ المسلمينَ والمسيحيين. فيها التقينا على ميعادٍ مع الله، وفيها تأخينا ودرجنا. تحتَ سماءها صلينا ولا زلنا نلتفتُ إليها بقلوبِ الشوق. معًا شردنا وفوق ذاتِ الدروبِ شلحنا. سماءٌ واحدةٌ ظللتنا وكم راقبنا النجومَ منتظرينَ الصبحَ الطويل. معًا لعقنا، مسلمونَ ومسيحيونَ، الترابَ وتدثرنا الصقيعَ وأكلنا فوق مائدةِ البؤس. معًا سُحنا في ديارِ العالمِ وقلوبنا تُحرّقُها نيرانُ القسوةِ واللامبالاة. الرغيفُ صارَ في يدنا منّةً والدثارُ سوطاً يلسعنا لأنّه من حياكةِ الغرباء. معًا متنا ونموتُ وامتزجَ دمُ الشهيدِ بالشهيدِ لتشرقَ نوافذُ القدسِ بأنوارِ الحرّيّة. معًا سكبنا ونسكبُ الدمعَ ليعودَ إلى ينابيعِ الأرضِ المقدّسةِ طهرها ونقاؤها.

القدسُ لنا، نحنُ العربُ، لا لسوانا. إنّها حقنا ولن نتخلّى عنه مهما كانتِ النتائجُ. لقد حميناها منذُ أجيالٍ وأجيالٍ بالإخاءِ والمحبّةِ والإيمانِ وستبقى محميّةً إيماننا وإحساننا ومحبتنا. من يتصدّقُ فليصدقْ ممّا يخصّه، أمّا أن يتصدّقَ الناسُ علينا من أموالنا وميراثنا، فهذا احتقارٌ للحقِّ ودوسٌ لكلِّ القيمِ الإنسانيّةِ واستهتارٌ بالعطاءِ الإلهي.

القدسُ عربيّة، وستبقى عربيّةً ما دامت أرضُ العروبةِ ترتوي بدماءِ شهدائنا وتزخرُ بالأرواحِ التي تؤمنُ بما تمثّلُ القدسُ من معانٍ إلهيّة.

لن يكون للدم العربي الذي أراقه شهاؤنا المسيحيون والمسلمون أي مبرر إذا وقعت القدس ضحيةً للمساومات ولن يكون لكفاحنا وجهادنا الطويل أي جوهري. القدس هي رايتنا نرفعها كجوهرٍ حرّيتنا وانطلاقنا الإستقباليّة في ركب حرّية البشر وسلامهم.

نحن مطالبون أمام الله والتاريخ، أمام أجيالنا الماضية والمستقبل، بقدس يبقى فيها الصليب والهلال متعانقين عناق الإخوة والشهادة من أجل الحق، بقدس لا يرف فوق مسجدها الأقصى وكنيسة مهدها وقيامتها غير علم العروبة، رمز الإخاء المسيحي الإسلامي، رمز شهادتنا لحقنا وحرّيتنا. فلا مساومة على القدس ولا أنصاف حلول، لا تدويل ولا حماية. لا يمكن أن يبقى العالم العربي بدون قلبه ليرضى أفاق الطرق، لترضى الصهيونيّة، وليدّة البغضاء والحقد العنصري والرياء التاريخي، ويرضى كل من تحكمت بهم شرورها واستعبدتهم آثامها.

القدس مدينة الصليب والهلال وستبقى نوراً عربياً يشع منه العدل والحرّية والسلام على العالم.



دير رقاد والدة الإله - حمّطوره

© ٢٠١١